في ثياب الكاهن

بقلم المتروبوليت سابا (اسبر)

في أواخر القرن الماضي احتدّ النقاش، في اليونان، وبالأخص في أثينا، حول ما يجب أن يرتديه الكاهن، خارج الخدم الليتورجية، بين الثوب التقليدي (الغنباز) أو البدلة المدنية (clergy suit). ويُروى عن القدّيس باييسيوس، أنّه، في تلك الفترة، استقبل عدداً كبيراً من الزوار الذين يسألونه رأيه في الأمر. بعدما كثر السائلون، عمد القدّيس إلى نزع كلّ أوراق إحدى شجيرتي الزيتون اللتين في حديقة منسكه. وصار يجيب السائلين هكذا: انظروا إلى هاتين الزيتونتين واحكموا أيّهما الأجمل؟

أبدأ بهذه القصّة لأتكلّم قليلاً في ظاهرة باتت منتشرة في أوساط أبرشيتنا. بدأ تخلّي الكثير من الكهنة عن البدلة المدنية والعودة إلى الثوب الكهنوتي التقليدي والشعر واللحية الطويلين. بالطبع، يحتاج الأمر إلى دراسة معمقة وتحليلة للأسباب التي ساهمت في ذلك. باعتباري مطران الأبرشية، وعلى الرغم من تفضيلي ارتداء الغنباز والاكتفاء بلحية معتدلة مهذبة، [قد أفصّل الأسباب في إطارٍ آخر] فإنّي لم ألجأ إلى إلزام الكهنة على اعتماد نمط محدّد بعينه في مظهرهم الخارجي. لا أزال أترك الأمر لتاريخ كلّ كاهن وضميره، متفهماً المجتمع الأميركي وتاريخ الأبرشية، والتغيّرات التي طرأت عليها في السنوات العشرين الأخيرة. ليس القماش من يقدّس الإنسان، ولكنّه يلعب دوراً في التعبير عن الشخص ودوره.

لكن إذ بدأ التطرف يظهر في كلا النموذجين، فلا بد من كلمة توضيحية وتوجيه.

كانت ثياب الكاهن خارج الخدمة الليتورجية تقليديا الغنباز والجبّة والقلوسة. بدأ التأقلم مع تغيّر نمط المعيشة وتوسّع المدن وكثرة المواصلات وتنوّع خدمات الكاهن الرعوية، يدفع إلى الاكتفاء بالغنباز فقط، في أثناء تجول الكاهن وزياراته غير الرسمية. فيما ظلّ ملزَماً بالجبّة في دخوله الكنيسة أو الدير وما إلى ذلك، لأنّ الجبة هي الجزء الأساسي من ثيابه الكهنوتية. بينما سادت البذلة الكهنوتية المدنية clergyman suit في أبرشيات الانتشار. طبعا بدأ التخفيف من طول الشعر واللحية مع بدء

سبعينيات القرن الماضي للأسباب العملية ذاتها. وساهم في ذلك دخول عدد من الكهنة في المجال الوظيفي المدني لأسباب عديدة لا يتسع المجال لمناقشتها في هذا المقال.

ثمّة ظاهرتان، تحملان تطرّفاً، رافقتا المرحلة التالية من شيوع هذا التخفيف. تظهر الأولى في المغالاة في التخفيف إلى حدّ عدم التقيّد بالبذلة الكهنوتية المدنية، وسماح بعض الكهنة لأنفسهم بالثياب التي تريحهم casual ، بحيث لم يعد الكاهن يتميّز عن غيره. معلومٌ أنّ المظهر الخارجي يعكس البعد الداخلي الذي يعيشه الإنسان. فالسلوك الظاهر تعبير عمّا في الداخل. غاب الوقار عن بعض الكهنة، ونسي بعضهم أنّهم مكرّسون لخدمة الله ٢٤/٢٤.

أمّا الثانية فبدأت بعد تسعينيّات القرن الماضي، كردّة فعلٍ على روح "العلمنة" التي هيمنت على الأوساط الكنسية في النصف الثاني من القرن ذاته، وكان مظهر الكاهن أحد هذه الردّات. فبدأنا نشهد عودة إلى إطالة الشعر واللحى ونبذ البدلة الكهنوتية المدنية. ووصل الأمر ببعضهم إلى القول بعدم توفر النعمة الأسرارية عند الكهنة الذين لهم المظهر غير التقليدي! هذا يُنذر بخطرٍ يجب التنبّه إليه ومداواته بصبر وتأن وهدوء.

تكمن خصوصية هذا الموضوع، أقلّه في أبرشيّتنا، في أنّ الكثير من المهتدين التحقوا بالكنيسة الأرثوذكسية بسبب العصرنة التي اعتمدتها كنائسهم القديمة، وما تبعها من "لبرلة" فاقت تصوّر الذين بدأوا، منذ ستينيّات القرن العشرين، ما سُمي بحركة "كنيسةٌ من أجل عالمنا". بقدر ما تزداد مظاهر "العلمنة" تشدّداً في الكنيسة، تزداد مظاهر "التقليدانية" فيها. هذه قاعدة لا تخطئ.

في لقاء غداء ضمّ أحد المطارنة المعروفين، على الصعيد العالمي، بروحانيّتهم وكتاباتهم اللاهوتية، استوضح أحد الأساقفة الجدد شماسَ ذاك المطران الشيخ عن عدد البذلات الليتورجية التي يملكها! فأجاب ذاك شمّاسه بأن يجيب صاحب السؤال هكذا: "إنّني لا أهتمّ بلاهوت "الشراطيط." بالطبع، كان جوابه عنيفاً بمقدار

تفاهة السؤال. وأنا أعلم شخصيّاً كم كان هذا الشيخ يتقن الخدمة الليتورجية ويهتم بجمالها الخارجي والداخلي. لكنّه أراد أن يلقّن ذلك الأسقف الشابّ درساً في الاهتمام بالعمق والجوهر، كي يحفظه من "الأزيائية" والترف الليتورجيّين.

أوجّه كهنتنا إلى أن "يذهبوا إلى العمق دوماً" في كلّ شيء. من الضروري أن يكون ما يلبسه الكاهن مراعياً للأصول الكنسية والتوجيه المتبّع في أبرشيّته. أسمح لكهنة أبرشيّتنا أن يتبعوا في مظهرهم الخارجي النمطين؛ أعني التقليدي والمدني clergy man suit. هذا أمرٌ له علاقة بضميرهم الروحي ونهج حياتهم الروحية، وتالياً لا أغصبهم على مخالفة ضميرهم. لكنّني آمرهم بالمظهر اللائق والنظافة التامّة. يجب ألّا يكون الكاهن على أناقةٍ صارخة، متّبعاً الموضة على آخر نمط، بل يجب أن يكون مظهره لائقاً ونظيفاً ومرّتباً. فلا يغالي من اعتاد على البدلة الكهنوتية المدنية في التأنق، ولا يستبدلها بثياب أخرى يوميّة casual. وكذلك الكاهن التقليدي، يجب ألّا يفرط في إطالة لحيته وشعره وعدم تمشيطهما وتهذيبهما، وذلك كي يبدوا لائقين، فهو ليس راهباً لا يبرح ديره، بل متزوجٌ ملزَمٌ بزوجته وأولاده، كما تلزمه خدمته الكهنوتية بمرافقة أبناء رعيّته في كافة ظروفهم الحياتية. لينتبه الاثنان جيّداً إلى التعرّق، خاصّة إذا كان الكاهن يخدم في منطقة رطبة وساحلية.

يعلّمنا آباء الكنيسة أنّ الفضيلة تكمن في الاعتدال. إنّها "الوسط بين تطرّفين." فالكَرَم، على سبيل المثال، هو الوسط بين الإسراف والتقتير. والشجاعة هي الوسط بين التهور والجبن، وهكذا... إلخ. على هذا المنوال، يجب أن يكون مظهر الكاهن، لا شديد الأناقة ولا شديد الإهمال، ومن المستحسن وضع قليل العطر غير الصارخ. فلنكن لائقين من الداخل والخارج، في الشكل والمضمون، في المظهر والجوهر. فنتمّم خدمتنا بورعٍ وتقوى؛ حريصين بدقّة على أن تكون مرضية لله قبل أي آخر.